تراث الإنسانية

مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري

لكوندرسيه

د . السيد محمد بدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

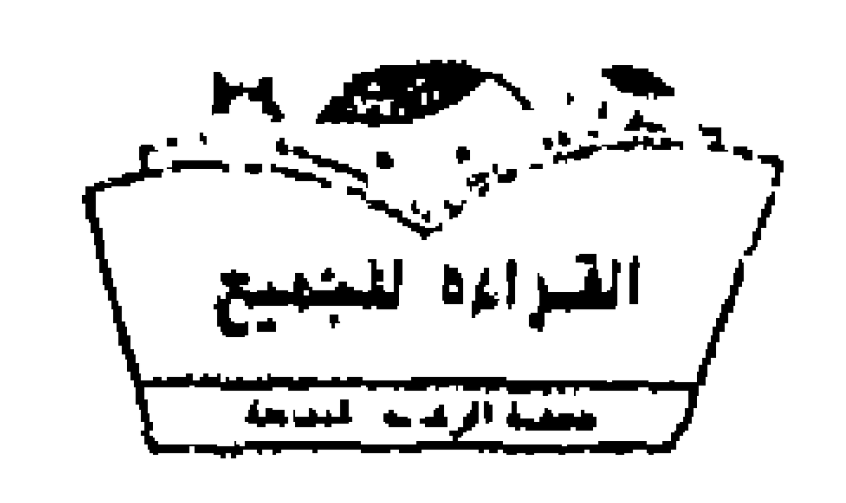
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

مخطط تاريخي لتقدم العقل

مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى

لكواندرسيه

د. السيد محمد بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى لكواندرسيه

د . السيد محمد بدوى

تقول مدام دى لسبيناس فى تصويرها لصفات كوندورسيه انه « واضح ودقيق ، عادل ومتسامح ، يجمع بين سهولة التعبير ورشاقة الأسلوب عند « فولتير » ، وبين لذاعة « فونتنيل » ، وعمق « نيوتن » • ويضيف الى معارفه الواسعة الاستنارة والذوق الجميل ، واذا تحدثت اليه ، أو قرأت ما يكتبه ، أو ناقشته فى الفلسفة ، أو الأدب أو العلوم ، أو الفنون ، أو نظم الحكم ، أو التشريع ، لقلت لنفسك مائة مرة انك أمام عبقرية قل أن يجود الزمان بمثلها • فهو لا يجهل شيئا حتى التفاصيل التى قد لا تتفق مع ذوقه أو مع شواغله • وتساعده على ذلك ذاكرة عجيبة تعى كل شىء ولا تنسى شيئا قط » •

يتضح لنا صدق هذا الوصف ، وعدم غلوه ، حين نتصفح المجلدات التى تحتوى على المؤلفات الكاملة لكوندورسيه • ونجد أن « دالمبير » كان على حق حين عهد ،

فى وصـــيته ، بتكملة مشروع « الأنسكلوبيديا » الى هذا العقل « الانسكلوبيدى » اذ تشهد سلسلة مؤلفاته الطويلة انه ما من مسالة من المسائل التى شغلت عصره الا وكان له فيها رأى •

حيـــاته :

ولد جان أنطوان نيكولا (ماركى دى كوندورسيه) فى ١٧ سبتمبر عام ١٧٤٣ م ، وفقد والده وهو فى سن الرابعة ، فتقاسمت أمه عبء تربيتـه مع خاله ، ونشـأه تنشئة دينية خالصة ، وعند بلوغه الحادية عشرة عهدا به الى أحد الآباء اليسوعيين • وفى عام ١٧٥٨ التحق بكلية « نافـار Navarre حيث تفوق فى حـل المعـادلات الصعبة ، مما جعله يكرس جهوده لدراسة العلوم ، وبخاصة العلوم الرياضية •

ولم يكن عمره قد تجـاوز الثانية والعشرين حين تقدم الى أكاديمية العلوم بأول دراسـة له فى الرياضيات عن « حساب التكامل » • وفتح بهذه الدراســة مجالات جديدة ساعدت هذا الفرع من العلوم الرياضـية على بلوغ الكمال • وهيأته دراسته وأبحاثه لأن يصبح عضوا فى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٦٨ • ولكن أسرته طلبت اليه ألا يتقدم لهذا المنصب العلمي لأنها كانت تعد الانشغال بالعلوم مما لا يليق بأسرة نبيلة • وكانت تفضل له أن

يصبح قائدا فى سلاح الفرسان • ولكنه لم يرضخ لرغبة أسرته الا عاما واحدا ، وفى العام التالى تقدم لهذا المنصب ، وانتخب بالاجماع •

ويتميز عام ١٧٧٠ بلقائه مع فولتير حيث ذهب اليه فى صحبة « دالمبير » وقد أثرت هذه الزيارة فى نشاطه العلمى الذى أصبح بعدها لا يقتصر على مجال الرياضيات، بل تعداه الى مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة كما أثرت صداقته « لتورجو » Turgot فى توجيه بعض اهتماماته الى مسائل الاقتصاد الاجتماعى • وعندما أصبح تورجو وزيرا للمالية عهد الى صديقه « بمراقبة النقد » • وهاجم كدندورسيه سياسة نيكر Necker الاقتصادية الى حد أنه ترك وظيفته عندما أصبح « نيكر » وزيرا •

ولم يكن اهتمامه بالمســائل الاقتصــادية والمالية يشغله عن متابعة البحث والكتــابة فى الفلسفة ، فأعد بحثا عن « تمجيد بسكال » ، واهتم باعداد طبعة جديدة لمؤلفه الخالد « الأفكار » Les pensées » وفى هذا البحث لم يخش كوندورســيه من أن ينقد بسكال لعدم اهتمامه بعلوم التاريخ الطبيعى ، وأثار هذا النقد بعض السخط عليه فى الأوساط العلمية ، بل انه كان من أسباب تعطيل انتخابه عضوا فى الأكاديمية الفرنسية • ولم يكن فولتير من أنصار هذا التعطيل بل ثار عليه وكتب الى كوندورسيه فى عام١٧٧٦ يقول : « أكرر لك أنك اذا لم تشرفنا بأن

تصبح عضوا معنا هذا العام فاني سأخرج لأقضى بقية حياتي عضوا في أكايمية برلين أو بطرسبرج ، ومع ذلك فان كوندورسيه لم يتقدم لعضوية الأكاديمية الا في عام ١٧٨٢ ، ولم يفز على منافسه « باييى Bailly » الا بصوت واحد • وكان البحث الذى ألقاه عند استقباله بالأكاديمية عن « المزايا التى يجنيها المجتمع من اتحاد العلوم الطبيعية مع العلوم الأخلاقية » (١) •

وفى عام ١٧٨٦ تزوج كوندورسيه ، وكانت سنه حينذاك ثلاثا وأربعين سنة ، وفى خلال السنة نفسها نشر مؤلفه عن « حياة تورجو » الذى عبر فيه عن آرائه الأساسية فى السياسة ، وهاجم فيه بلا هوادة امتيازات النبلاء (بالرغم من أنه كان بحسب مولده واحد منهم) • واتضح منذ ذلك الحين أنه أخذ يعد نفسه للحياة العامة • وكانت أول الوظائف السياسية التى تقلدها عضوية بلدية باريس • ومن هذا المنصب تولى كتابة احتجاج أهل باريس ضد القانون الذى أصدرته الهيئة التأسيسية للدستور الذى كان يرتب حقوق المواطن السياسية على أساس ما يدفعه من الضرائب •

وفى عام ١٧٩١ رشح نفسه لعضوية الجمعية التشريعية وفاز بها ، وانتخب أولا سكرتير الجمعية

---

(١) Des Avantages que la Société peut retirer de la réunion des sciences physiques aux sciences morales.

ثم رئيسا لها ، وكان من أول المهام التى قام بهـــا الغاء قانون امتيــازات النبلاء ، ثم كرس جزءا كبيرا من وقته لتنظيم التعليم العام ٠

وأصبح عضـــوا فى لجنة دستور الثورة الفرنسية فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ ٠ وعهد اليه ، مع بعض زملائه ، ببحث قضية لويس السادس عشر ، فوقف منها موقفا فى غاية الاعتدال وتوخى العدالة القانونيـــة ، ورأى أن الحكمة تقتضى عدم السير فى اجراءات اعدام الملك ٠ بل انه صرح دون مواربة أنه ضد عقوبة الاعدام عموما ، وقال « ان الغاء عقوبة الاعدام من أنجع الوسائل لرقى الجنس البشرى لأن هذا الالغاء يقضى على الميول الوحشـية التى انتقصت من قيمة الانسان خلال أجيال عديدة » ٠ ولكن مجلس الثـــورة لم ياخذ برأيه ، وأعـــدم الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت بالمقصلة ٠ كما أن الدستور الذى اشترك فى وضع قواعده الأساسية أدخلت عليه تعديلات كثيرة غيرت معالمه ، فهاجمه كوندورســيه بعد أن تمت الموافقـــة عليه ، وصرح بأن « ارادة الشعب الحقيقية يجب أن تحترم ، وأن من الخيـــانة للشعب أن نعتقد أنه غير قادر على اجراء انتخابات مباشرة حرة ٠ كما أن الدســتور الذى لا يعطى ضـمانات للحريات المدنيـــة يعتبر بلا شك دستورا معيبا ٠

وكانت هذه الملاحظات التى أبداها كوندورسيه على

الدستور والتى تعبر عن ضمير الشعب وتنبعث عن فهم واع للديموقراطية الأصيلة ـ كانت هذه الملاحظات سببا فى اصدار الأمر بالقبض عليه • ولكنه كان قد احتـاط للأمر واختبـأ فى منزل مدام فرنيـــه Mme Vernet وهى من أصدقاء أسرته •

وفى سجنه الاختيارى هذا شغل كوندورسيه نفسه بعمل كبير طالما طلب اليه أصدقاؤه أن يقوم به ، وهو كتابة تاريخ تطور البشرية • فانصرف الى هذا العمـل الضخم فى ديسمبر ١٧٩٣ ، وانتهى منه فى مارس ١٧٩٤ وجعل عنوانه « مخطط للوحة تاريخية عن ضروب التقدم التى أحرزها العقل البشرى » (٢) •

وهو المؤلف الذى نقوم بعرضـــه وتحليله فى هذا البحث •

ويعبر هذا المؤلف عن ثقة لا حـــد لها فى مستقبل البشرية ، وهو أمر يثير الدهشة اذا تذكرنا أن كوندورسيه قد كتبه وهو تحت وطأة الحكم بالاعدام الذى صدر ضده • فقو استعرض فيه بعين فاحصة الحالات الماضية والحالة المستقبلة التى بدا له أن المجتمعات الانسانية تسير اليها ، ونجح فى أن يبعد عن ذهنه شبح الأفكار التشاؤمية التى

Esquise d'une tableau historique des progrès de l'Esprit human.

بعثتها فى نفسه أحداث فرنسا فى ذلك الوقت ولم يظهر فى كتابتـــه أى أثر لحالة العزلة التى اضطر اليها ، ولا أى كلمة تنم عن الشكوى مما آل اليه مصيره • بل كان المجال كله خالصـــا للعقل الهادىء المتزن ، والنظـرات الفلسفية الشاملة ، والمشاعر النبيلة التى تؤمن بالرسالة الحضارية للانســان • لقــد لخص كوندورسيه رأيه فى مستقبل البشرية بقوله • « كل الظواهر تدل على أننا على أبواب عصر سيحقق ثورة من أكبر الثورات التى حدثت فى حياة النوع الانسانى • وتضمن لنا الحالة الراهنـــة للمعارف الانسانية أن هذه الثــورة ستحقق الســـعادة للبشرية » •

وعندما انتهى كوندورسيه من كتــابة هذا المؤلف بدأ يساوره الخوف من أن تكون اقامته عند مدام فرنيه سببا فى جلب الايذاء له • فخرج من عندها ذات صباح ، رغم رقابتها الشديدة لمنعه من القيام بهذه المحاولة ، واتجه الى ضاحية « فونتنى أو روز Fontenay-aux-Roses » حيث يقطن أحد أصدقائه القدامى • ولكن هذا الصديق لم يقبله عنده أكثر من أربع وعشرين ســـــاعة • وخرج كوندورسيه مرة أخرى الى الشارع واحتمى فى أحـــد المحاجر فى سهل مونروج Montrouge وكان لا يخرج منه الا ليلا • ثم اضطره الجوع والجرح الذى أصابه فى ساقه الى الخروج يوما بعد الظهر ، ودخل الى أحد المطاعم حيث طلب غداء لا يتفق مــــع هيئته الزرية ، فارتابت

صاحبة المطعم فى أمره ، وأبلغت عنه سلطـــات الأمن ، فقبض عليه وسيق الى السجن •

وعندما فتح الحراس فى الصباح أبـواب زنزانته لاستجوابه وجدوه جثة هامدة ، اذ كان قد تجرع جرعة قوية من السم مخبأة فى أحد خواتمه وبهذه النهاية المحزنة انتهت حيـــاة ذلك المفكر الذى آمن بخـير البشرية فى المستقبل ، وهى تذكرنا بنهاية سقراط الذى كان أول من أرسى دعائم الخير على المعرفة •

وكانت وفـاة كوندورســـيه فى يوم ٨ ابـريل عام ١٧٩٤ •

مؤلفاته :

اذا تركنا جانبا ما كتبه كوندورسيه فى الرياضيات فانه يمكن تصنيف مؤلفاته فى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول ويشمل المؤلفات التاريخية والتى تحوى سجل حياة بعض العظماء ـ والقســم الثـانى يتضمن المؤلفات السياسية والاجتماعية ـ والقسم الثالث وهو يحتوى على المؤلفات ذات الطابع الفلسفى الصرف •

وقد يكون هذا التصنيف ناقصا أو تعسفيا اذ أن بعض كتابات كوندورسيه قد يصعب ادخالها فى أى من

هذه الأقسام · ولكن تبرره ، على أى حال ، رغبة الباحث فى تحليل آرائه على أساس منهجى ·

أما القسم الأول : فيحتوى أولا على المقـالات التى كتبها فى « تخليد » ذكرى بعض شخصـيات عصره من الفلاسفة والعلماء · وهذه التمجيدات « Les Eloges » كثيرة تبلغ حوالى الثمانين مقالا وتمتد من عام ١٧٧٢ الى عام ١٧٩١ · ومـن أشهر الشخصيات التى مجـدها : بسكال ، ولينيه ، ودالمبير ، وتورجو ·ولم يتبع كوندورسيه فى كتابة تمجيداته الأسلوب التقليدى الذى يقتصر على المديح وذكـر المناقب ، اذ أنه لم يتردد فى النقد وابداء التحفظات اذا وجد أن آراء من يكتب عنهم تستدعى ذلك · فمثلا بالنسبة لبسكال يعجب كوندورسيه أيما اعجـاب بمواهبه العلمية ، وصفاته الخلقية ، ويشيد بأسلوبه · ولكنـه يرى أن تعلقـه المتعصب بالعقيـدة والشعائر الكاثوليكية قد حال بينه أحيانا وبين انماء فكرته والوصول بها الى غايتهـا الطبيعية · ومما قاله فى هذا الصـدد « أن بسكال كان معاصرا لديكارت ولكن لم يكن له ، مع ذلك ، أى نصيب فى تقدم الفلسفة · ونستطيع أن نجد فى اختلاف صفات كل منهما السبب الذى منع بسكال من أن يسهم فى تلك الثورة الفلسفية الكبرى التى أثارها ديكارت فى العقول ، وأصبحت احـدى دعامات الجنس البشرى لتحقيق السعادة ، اذا كان تحقيق السعادة ممكنا ، لقد كان كل من بسكال وديكارت عالما كبيرا فى الهندسة ،

وكانت لهما مواهب متكافئة ، ومع ذلك فان طريقة كل منهما فى النظر الى الفلسفة كانت تتعارض مع طريقـــة الآخر • فكان ديكارت يحتقر الأفكار التقليدية ، ولذا بدأ باطراحها جميعا ، وأحل محلها الأفكار التى استوحاها من تأملاته الفلسفية • أما بسكال فكان على العكس مليئـــا بالاحترام للأفكار التقليـــدية التى رسخت فى الأذهان مع الزمن ولم يكن يتركها الا حينما تجبره على ذلك البداهة ذاتها • وكان يخاف من الغلو فى الثقة بالعلوم ، ومـن الاهتمام بتعميقها حتى لا تعتقد العقول الطيبة أن العلوم هى وحدها الجديرة بالعناية وأن الناس يجب ألا يسيرون فى حياتهم الا على هدى التجربة الحسية والحســـــاب الدقيق » •

توضح لنـــا هذه العبـــارات وغيرها كيف كان كوندورسيه يفهم فكرة « التمجيد » ، اذ كان يجعل منه تاريخا نقديا حافلا بوجهات النظـــر المتعددة التى تمتع القارىء وتبعده عن السأم •

ونضيف الى « التمجيدات » سير الحياة التى كتبها ، وأهمها ، حياة تورجو ، وحيـــاة فولتير ، وبالنسبة لهذا الأخير أراد كوندورسيه بصفة خاصة أن يعرفه للناس على حقيقته ويجعلهم يحبونه وتشهد بذلك الخاتمة التى قال فيها • « لقد كان اعجـــاب الناس بفولتير أكثر من معرفتهم به • ولكننا نرى أن السم الزعاف الذى كان يسرى

فى بعض كتاباته السياسية ، لا يمنع من وجـــود عاطفة نبيلة ، وطيبة أصيلة تسيطر دائما على نشاطه • لقد كان فولتير يحب التعساء أكثر مما كان يكره أعداءه • ولم يكن حب الشهرة لديه الا خاضعا لعاطفة أكثر نبلا وهى حب الانسانية • ولا يوجد من أمثال فولتير الا القليل من الرجال الذين استطاعوا أن يشرفوا حياتهم بأكثر ما يمكن من الأعمال الخالدة ، وأن يدنسوها بأقل ما يمكن من النفاق والملق » •

أما حياة « تورجو » فيبدو أن كتابتها كانت فرصة لكوندورسيه لتثبيت آرائه السياسية ورســـم برنامجه للعمل الاجتماعى • ولذا فهى من هذه الناحية ذات أهمية قصوى • ونستطيع أن نجد فيها اشارة لبعض الآراء التى يجىء تفصيلها فيما بعد فى مؤلفه الكبير « مخطط لتقدم العقل البشرى » •

القسم الثانى :

الكتابات السياسية والاجتماعية :

تحتل هذه الكتـــابات جزءا أكبر بكثير مما تحتله الكتابات التاريخيـــة فى المجمـــوعة ، الكاملة لأعمـــال كوندورسيه ، ومن الطبيعى أن يكون تاريخها فى الحقبة التى اشتغل فيها كوندورسيه ، فى الوظائف العـــامة ،

أو لعب دورا فى السياسة • ومع ذلك فهناك بعض كتابات من هذا النوع سابقة على تلك الحقبة مثل « خواطر عن أنواع السخرة » ، و « الاحتكار والمحتكر » ، و « خواطر عن التشريع الجنائى (٣) كما كتب أيضا عن حرية الصحافة •

ولكن من عام ١٧٨٦ الى عام ١٧٩٤ يتميز نشاط كوندورسيه بكتابة عدد كبير من ، الخواطر ، والمقالات ، والأفكار ، والمشروعات ، والأبحاث ، والأحاديث والاختبارات ، والتقارير ، الخ •• وكلها تشهد بتنوع الموضوعات التى طرقها ، وبالنشاط العجيب لصاحبها ، وقد ورد منها فى الطبعة الكاملة لمؤلفاته مائة وستة وعشرون بحثا ، ومن ضمنها خمسة بحوث هامة عن تنظيم التعليم العام •• ويسرى من خلال هذه البحوث المتنوعة تيار واحد يحمل القارىء على الشعور بأن وراء كل سطر تكمن الرغبة فى المنفعة وتحرى الحقيقة •

أما كتاباته السياسية فلم يكن هناك ما هو أكثر منها بعدا عن روح الفوضى أو « الديماجوجية » وعزوفا عن الصعود عن طريق تملق شعور الجماهير • وقد كرس احدى مقالاته لفضح أساليب «الديماجوجية» وهى بعنوان:

---

(٣) Rtflexious sur les Corvées — Monopole et monopoleur — Réflexions sur la jurisprudence criminelle.

« الصديق الحقيقي والصديق الزائف للشعب» (عام ١٧٩١) ٠
ومما جاء فيها : « يبحث ديماجوراس (ويرمز به الى الديماجوجي أو المهرج السياسي) بعناية ما هي الاتجاهات التي تروق الغوغاء فيبالغ فيها ، وما هي العواطف الجامعة التي تحرك الشعب فيتملقها ٠ وهو يصفق لأنواع المظالم التي يرتكبها الشعب ، ويبرر ما ينصرف اليه من العنف ، ويبارك عيوبه ٠ وهو يوافق على كل ما يقوله الشعب ، لا في المجالس الرسمية (حيث يقف العقلاء له بالمرصاد ، بل وسط حشود الشوارع والأزقة ٠ أما صديق الأمة الحقيقي فهو ، فيلودم « Philodème الذي لا يصعد الى المنصة الا ليقدم للشعب نصائح نبيلة ونافعة ، وهو يقول ما يعتقد أنه الحق دون أن يستجدي التصفيق أو الهتاف ٠ واذا كان للشعب آراء خاطئة فانه يحاربها ، واذا اقترف أخطاء فانه يلومه عليها ، بل يجبره ، اذا استطاع على أن يصلحها ٠ وهو قد يتعرض لغضب الشعب في سبيل أن يجنبه اقتراف الجريمة ٠ واذا كان الآخرون يثيرون عواطفه وانفعالاته فان « فيلودم » يبحث عن الوسيلة لتبديد مخاوفه الوهمية وشكوكه السخيفة ٠ وهو يرثي لحال المخدوعين ، ويحتقر المحرضين ، واذا تعرض للوشاية واجهها بتقديم حياته كلها لخدمات جديدة » ٠

هذه ، بلا شك ، هي صورة كوندورسيه نفسه ويكاد القارىء يقطع بهذا الرأي بعد الانطباع الذي يخرج به من قراءة العديد من كتاباته السياسية ٠

القسم الثالث :

مؤلفاته الفلسفية :

تعتبر هذه المؤلفات قليلة نسبيا بالقياس الى النوعين السابقين ، كما يجب أن نفهم كلمة ، فلســفة فى هذا المجال على النحو الذى فهمها به القرن الثامن عشر اذ كانت تدخل فيها ، حتى ذلك الحين بحوث الرياضيات العليا ، والفلك ، والسياسة والاجتماع ٠

وأول هذه المؤلفــات « مقــال الاســتقبال » فى الأكاديمية الفرنسية ٠ وقد عالج فيه ــ كما ذكرنا من قبل ــ طريقة تحقيق الاندماج بين العلوم الأخلاقيــه ، والعلوم التجريبية ٠

ويأتى بعد ذلك « المقال عن العلوم الرياضــية » (١٧٨٦) ويحتوى على تاريخ للرياضيات منذ فيثاغورس حتى ، أولر ، Euler ودالمبير ثم يختتم ببعض الآراء عن أهمية الثقافة الرياضية ٠

ثم المقال عن الفلك وحساب الاحتمالات ، (١٧٨٧)،

ويهتم بتوضيح أهمية نيوتن ودى برنوئى De Bernouille فى تاريخ العلوم التحقيقية ٠

ثم يأتى المؤلف الكبير الذى تتعـرض ، فى هذا البحث ، لتحليله وهو « المخطط لتاريخ تقدم العقـل البشرى » ٠ وهذا الكتاب يدخل كوندورسيه فى عداد كبار فلاسفة التاريخ ٠ وهو يقسمه الى عشرة فصول ، يكرس كل فصل منها لعصر من عصور الحضارة ٠ ويبدأ فى الفصل الأول من الاختراعات الساذجة للانسان البدائى حتى ينتهى فى « الفصل التاسع » الى الكلام عن اكتشافات عصره ٠ ويجعل الفصـل العاشر والأخير لتنبؤاته عن المستقبل ، ويجمع فيـه بين دقة المؤرخ ورومانتيكيـة المتنبىء ٠

ويعتبر كوندورسيه من الفلاسفة الذين يعبرون عن روح عصرهم خير تعبير ٠ اذ أنه أبرز فى قوة ووضـوح قيمة الثروة العقلية والفكرية التى تجمعت فى القـرن الثامن عشر ، الذى أطلق عليه بحق « عصر التنوير » ٠ وتكمن قيمة كتاباته وآرائه فى أنها تعطى لنا صـورة دقيقة عن هذا العصر بحيث يمكن القول أن كوندورسيه يعبر وحده عن فلسفة القرن الثامن عشر باكمله ٠ وقد يتساءل البعض : وأين فولتير ، وديدرو ، ومنتسكيو ، ودالمبير ، وهلفتيوس ، وكوندياك ؟ ألا يعبر هؤلاء أيضا

عن القرن الثامن عشر ؟ حقـــا ان كلا من هؤلاء يعبر عن جانب أو عن بعض جوانب الحركة الفكرية فى ذلك القرن، ولكن أحدا منهم لا يعبر عما اشتمل عليه من اتجاهات ، وما اصطرع فيه من افكار مثلما عبر كوندورسيه •

ولما كان كوندورسيه أحد كبار المشتغلين بالرياضيات فى عصره فقد أولى اهتماما كبيرا لتطبيق المناهج الرياضية على العلوم الاخلاقية • وأطلق على أحد بحوثه الرئيسية فى هذا الميدان اســم « الرياضـــــة الاجتماعية La mathématique Sociale » وهو يطبق فيه مناهج الرياضة على دراسة عدد من المسائل الاجتماعية ، فيحاول أن يعرف مثلا معدل الوفيات فى هذا البلد أو ذاك ، ويربطه بمستوى المعيشة ، ونوع الحرفة ، أو يدرس بعض الأنظمة الانتخابية ليقرر مزايا نظام معين أو عيوب نظام آخر ، او يدرس نظم التأمين ليحدد نسبة ما يجب أن يدفعه المؤمن عليه •

وهو ينظر الى الانسان أولا بوصفه فردا ، فيحاول أن يحدد بدقة ، مستندا الى الحقائق الثابتة ، تاثير المناخ عليه ، وكذلك تاثير العادات والحرف على معدل الأعمال ، ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة قوانين الحياة الاجتماعية •

وينطوى هذا العلم الجديد ، الذى يجعل من كوندورسيه أحد الرواد الأوائل لعلم الاجتماع الحديث ، على ثلاثة مبادىء رئيسية وهى :

١ ـ تحديد الظواهر ٠

٢ ـ محاولة تقويمها ٠

٣ ـ النتائج التى تستخلص من دراسة هذه الظواهر ٠

وهو يقسم الظواهر الى طائفتين : الظواهر الحقيقة أو الواقعية ، وهى التى نلاحظ حدوثها بالفعل ، والظواهر الاحتمالية وهى التى يمكن أن نتوقع حدوثها نتيجة لالتقاء عناصر متعددة من عناصر الحياة الاجتماعية المتشابكة ٠

واذا لوحظت ظاهرة بعينها عدة مرات ، وبدت لنا منطوية على بعض الاختلافات ، فان هذه الاختلافات ترجع ، فى الحقيقة ، الى خطأ فى احدى الملاحظات ٠ وفى هذه الحالة يجب أن نبحث بين هذه الملاحظات عن واحدة تكون أكثر اقناعا لنا بانها تمثل حقيقة الظاهرة ٠

اذ لا يوجد ، فى أغلب الأمر ، سبب بعينه يجعلنا نتشبث بملاحظة دون غيرها •

وقسم كوندورسيه موضوعات الرياضة الاجتماعية على النحو الآتى :

١ ــ الانسان :

(أ) الانسان الفرد •

(ب) العمليات العقلية الانسانية •

٢ ــ الأشــــياء :

ارجاع الأشياء الى مقياس مشترك ، **باســـتخدام نظرية القيم** •

٣ ــ الانسان والأشياء : ويتضمن منهج هذا البحث

(أ) تحديد الظواهر وتقسيمها الى :

١ ــ ظواهر ملاحظــــة

٢ ــ وظواهر احتمالية •

(ب) احصـــاء الظواهر وتصنيفها ومعرفة طرق تآلفهـا ٠

(جـ) تقدير الظواهر للوصـــول الى القيمة الوسـطى ٠

(د) نتائج الظواهر وامكانات تطبيقاتهـا العملية

ومن ناحيـة دراسة الانســان يرى كوندورسيه أنه يتأثر بدرجة حرارة الجو ، وبطبيعة التربة ، وبالغذاء ، وبالعادات السائدة ، وبالنظم الاجتماعية ويمكن أن نستخدم المنهج الرياضى لمعرفة كيف تؤثر هذه العوامل المختلفة على طول مدة الحياة وعلى العلاقة بين عدد أفراد كل من الجنسين سواء أكان ذلك عند الولادة أو فى طبقات العمر المختلفة ، وعلى نسبة الزواج ، وحالات الفردية والترمل بالقياس الى مجموع السكان ٠ ويمكن أيضا معرفة أثر هذه العوامل على حالات الوفاة بين الطبقات والحرف المختلفة ٠ ونستطيع أن نحــاول كذلك معـــرفة أثر هذه العوامل على القوة العضلية وعلى طول الأفراد وأشكالهم ، بل وعلى صفاتهم الخلقيـــة ٠

وفى دراستنا لهذه العوامل يمكن النظـــر الى تأثير كل منها على حدة ، أو الى تأثير طائفة منها مجتمعة ٠ وفى

هذه الحالة الأخيرة يجب أن نختبر اذا كان تأثير العوامل مجتمعة يختلف عن تأثيرها متفرقة والى أى حد يكون اندماجها سببا فى تخفيف أو مضاعفة ما تحدثه من أثر ٠

ولا تطلعنا الملاحظة ، بطبيعة الحال ، الا على وجود تلازم بين أحد العوامل باعتباره ، سببا ، وبين الظاهرة الملاحظة على أنها نتيجة ويتعين بعد ذلك أن نحدد ، باستخدام حساب الاحتمالات ، اذا كان يجب أن نعتبر هذا التلازم ناتجا عن قانون ثابت أم لا ، أو بمعنى آخر اذا كانت النتيجة يجب أن تعزى الى السبب الذى نفترضه لها ، أو الى مجرد الصدفة أو وجود سبب آخر مازلنا نجهله ٠

ـ الأفكار الرئيسية فى « المخطط التاريخى لتقدم العقل البشرى » ٠

نتصرف الآن الى تحليل المؤلف موضوع بحثنا ، وابراز بعض فقراته الهامة ٠

يميز كوندرسيه بين طريقتين لدراسة الملكات الانسانية ٠ وتتلخص الطريقة الأولى ، كما ذكرنا من

قبل ، فى البحث ـ بطريق الملاحظة ـ عن الظواهر العامة وعن قوانين نمو هذه الملكات • أما الطريقة الثانية فتهتم بدراسة العقل البشرى من خلال النتائج التى توصل اليها بنشاطه ، وتحديد المحصلات المادية والمعنوية التى أضافها كل جيل الى الأجيال التى سبقته • اى أننا فى هذه الحالة لا تهمنا دراسة « مكانزم » التفكير فى صورته المجردة in abstracto ، بقدر ما يهمنا معرفة مراحل تطوره الفعلى •

ويمكن القول أن آراء كوندرسيه عن التقدم البشرى قد مهد لها ، فى العصور الحديثة ، عدد من الفلاسفة والمفكرين • فكتب « بسكال » ان « تعاقب البشر خلال القرون الطويلة المتلاحقة يجب أن ينظر اليه كوحدة مستمرة ، تزداد معارفها بصورة مضطردة » • وأعلن « ديكارت » ايمانه بتحقيق الانسان للكمال • وكذلك كان « بيكون » يؤمن بالتقدم اللانهائى للمعرفة الانسانية • كما كان تفاؤل « ليبنتز » يشتمل على وجود الرغبة المتأصلة والمتصلة فى نفوس جميع الكائنات لتحقيق حالة الفضل •

غير أن واحدة من هذه الفلسفات لم تكن تنطوى على نظرية كاملة للتقدم البشرى بالمعنى الذى وضحه كوندرسيه ، واقتبسه القرن التاسع عشر من بعده •

وتحددت هذه الأفكار الغامضة ، بعض التحديد ، عند « تورجو » اذ كان أول من حاول أن يستخلص من التاريخ فلسفة للتقدم . فكتب في مقاله الأول عن « التاريخ العالمي » (١٧٥٠) : « ان النوع البشري في مجموعه ، يتعاقب بين الهدوء والحركة ، يسير دائما ، ولو بخطوات بطيئة ، نحو تقدم أعظم » .

فالتقدم اذن « ضرورة » ، أما التدهور أو النكوص فهو « عرض » والتقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه ، على حين أن التدهور يعبر عن الالغاء المؤقت لهذا القانون . وكل جيل من أجيال الانسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالأجيال التي سبقته ويعتمد عليها . وهذه الحتمية التاريخية هي ضمان التقدم الانساني .

هذا هو المبدأ الذي يفصله كوندرسيه في قوة ووضوح لا نظير لهما ، معتمدا على منهج تاريخي صرف . فيقول في مقدمة مؤلفه :

« هذه اللوحة التي أقدمها تاريخية ، لأني كونتها عن طريق الملاحظات المتتابعة للمجتمعات الانسانية في العصور المختلفة التي مرت بها . وهي لذلك يجب أن تبرز ترتيب التغيرات ، وتعرض التأثير الذي تحدثه كل حقبة من الزمن في الحقبة التي تليها ، وتبين على هذا النحو ـ

من خلال التحولات التي طرأت على النـــوع البشرى في محاولاته المستمرة لتجديد نفسه ـ الطريق الذى سلكه ، والخطوات التى قطعهـــا للوصـــول الى « الحقيقة » و « السعادة » • وهذه الملاحظات عما كان عليه الانسان فى الماضى ، وعما هو عليه اليوم ، سنوصلنا بالضرورة الى الوسائل التى من شأنها أن تؤكد أنواع التقدم المنتظرة ، وتسرع بتحقيقها وفقا لما تقتضيه طبيعته •

« ذلكم هو الهدف من هذا المؤلف الذى ســتكون نتيجته الرئيسية أن يوضـــح ـ تارة بالوقائع وتــارة بالاستدلال المنطقى ـ أنه لم يكن هناك قط أى حد نهائى لاكتمال القوى والملكات الانسانيـــة ، وأن التقدم نحو الكمال ، بعد أن تحــرر من كل قوة تعوقه ، لايخضــع الا لعامل لزمن ومدة استمرار الحياة على سطح الأرض • ومما لاشك فيه أن من ضروب هذا التقدم ما سيســـير بسرعة ، ومنها ما سيسير ببطء ، ولكن هذا السير لن يعود القهقرى مادامت الأرض تحتل دائما مكانها فى النظـــام الكونى ، ومادامت القوانين العامة لهذا النظام لا تحدث على الأرض انقلابا عاما أو تغيرات عميقة لا تســمح للنوع البشرى الاحتفــاظ بنفس الملكات واستخدامها على النحو الذى ينشده •

« وأول حالات الحضارة التى أمكن ملاحظتها عند النوع البشرى هى حالة مجتمع يتكون من عدد قليل من الأفراد يعيشون على القنص وصيد الأسماك ، ويمارسون فنا بدائيا فى صنع بعض الأسلحة البسيطة والأدوات المنزلية ، أو فى بناء المساكن أو حفر الكهوف • وكان لكل من هؤلاء الأقوام لغة يتفاهمون بها ، وعدد قليل من الأفكار الخلقية التى يستخلصون منها قواعد عامة للسلوك • وكانوا يعيشون فى نظام عائلى ، ويخضعون حياتهم لأعراف عامة تحل لديهم محل القانون • بل ان منهم من كان لديهم شكل بدائى من أشكال الحكومة •

« ولاشك أن حالة القلق التى كان يعيش فيها النوع البشرى ، وصعوبة الحصول على عيشه ، وتعاقب فترات يومه بين العمل المضنى ، والراحة المطلقة » كل ذلك لم يترك لديه فرصة أو فراغا يخلو فيه لأفكاره ويعمل على تنمية ذكائه باستنباط وسائل جديدة • بل ان وسائل اشباع حاجاته ظلت مدة طويلة تخضع للصدفة البحتة ، ولتأثير الفصول المناخية بحيث لم تكن تسمح بظهور اتجاه نحو صنعة تنتقل من جيل الى جيل • واكتفى كل فرد بأن يحسن مقدرته وكفاءته الذاتية • » وعلى هذا النحو تعين أن تكون أنواع التقدم التى احرزها النوع البشرى بطيئة جدا فى مراحلها الأولى ، ولم يتحقق هذا التقدم الا على فترات متباعدة حين كانت تدفع اليه ظروف قاهرة

ومع ذلك ، نجد أن الانسان بعد أن كان يعتمد على القنص والصيد وبعض الثمار التى تمنحها الطبيعة ، أصبح فى مرحلة تالية يستعين فى غذائه بنتـــاج الحيوانات التى استطاع أن يستأنسها ويحتفظ بها ويكثر من سلالتها ، ثم ما لبث أن أضاف الى هذه الوســيلة فلاحـــة الأرض ، ولم يعد يكتفى بالثمار أو النباتات التى يلتقطها مصادفة ، بل تعلم بذر البذور ورعايتها بالعمل اليدوى والأدوات البسيطة ، وجمع المحصول واختزانه لوقت الحاجة ٠

« وكانت الملكية فى الحالة البدائية قاصرة على الفريسة التى يقتنصها الانسان بنفسه ، وعلى الأسلحة والشباك ، ثم امتدت الى القطيع المستأنس ، وبعد ذلك الى الأرض التى تزرعها الأسرة أو القبيلة ٠ ثم دعا وجود فائض فى ناحية ، ونقص فى ناحية أخرى الى خلق فكرة « التبادل » ، ومنذ ذلك الحين ازدادت العلاقات الأخلاقية والقانونية تعقيدا ٠

« وحين توفرت فرصة أكبر للأمن ، وتحقق نوع من الفراغ فى فترات منتظمة ، استطاع الانسان أن ينصرف الى التامل أو على الأقل الى الملاحظة المتتابعة ٠ ثم اعتـاد بعض الأفراد أن يستبدلوا جزءا من فائض ما يملكون نظير « عمل » يقدمه لهم الغير ، وسمح لهم ذلك بأن يتخففوا ، هم أنفسهم ، من هذا العمل فنشأت بذلك طبقة من الناس لا تصرف وقتها كله فى العمل الجسدى الشاق ، وامتدت

رغباتها الى أبعد من الوفـاء بالحاجات المادية • فتقدمت الفنون التى كانت معروفة من قبل ، وأدت ملاحظـات الانسان الأكثر خبرة ، والأكثر مرانا الى خلق فنون جديدة وازداد عدد السكان بقدر ما أصبحت وسائل الحصول على العيش أقل صعوبة وأكثر تقدما • وأصبحت الأفكار المكتسبة تنتقل وتنتشر بسرعة بين أفراد مجتمع أصبح أكثر استقرارا وأكثر تقاربا بفضل نظام الزراعة •

« ويمكن القول أن فجـر العلم بدأ يبزغ فى ذلك الحين ، اذ استطاع الانسـان أن يميز نفسه عن الأنواع الأخرى من الحيوان ، ولم يعد ، مثلها ، يقتصر لاشباع حاجاته على ما تمنحه الطبيعة • وكذلك لم يعد التقدم الذى يحرزه قاصرا على القدرات الفردية ، بل أصبح ذا طابع اجتماعى •

« ثم ما لبثت العلاقات الأكثر اتساعا والأكثر تعقيدا أن جعلت الناس يشعرون بضرورة ايجاد وسـيلة لنقل أفكارهم الى الأفراد الغائبين أو البعيدين ، وتثبيت ما تعيه الذاكرة فى صورة أكثر دقة من مجرد النقل الشفوى ، واثبات شروط اتفاق بشكل أكثر تأكيـدا من شـهادة الشهود ، وتحقيق نوع من الالتزام للعادات التى اتفق الأفراد على اخضاع سلوكهم لهـا • فنشأت الحاجة الى « الكتابة » ، ويبدو أنها كانت فى بادىء أمرها عبارة عن

نقوش ورسوم توضح السمات البارزة للأشياء ، ثم أخذت تعبر بعد ذلك ، بطريق الاستعارة ، عن الأفكار المعنوية • وأصبحت الكتابة هي فن التعبير ، بعلامة اتفاقية ، عن كل فكرة وكل كلمة • وبالرغـــم من أن عدد هذه العلاقات محدود ، فقد توصل الانسان لأن يكون منها عددا لا نهاية له من التركيبات اللغوية ، وذلك بعد أن عدل تصميم هذه العلامات ، وجعلها ، بدلا من أن تدل على المعانى ، تعبر عن العناصر البسيطة التى تتكون منها الكلمات • وبذلك نشأت الحروف الهجائية التى حققت خطوة كبيرة فى طريق تقدم النوع البشرى » •

ويدعونا كوندورسيه بعد ذلك الى ملاحظة ثلاثة أجزاء متميزة فى اللوحة التى يرسمها عن مراحل التقدم :

« ففى الجزء الأول حيث تدل أقوال الرحـــالة على الحالة الفطرية للنوع البشرى ، كما شـــاهدوها عنــد الشعوب المتأخرة ، لا نستطيع الا أن نعتمد على التخمين فى تصور المراحل التى مر بها الانسان من حالة الوحشية الى حـالة التجمع البسيط مع أقرانه لتأمين حياته وزيادة نسله ، وكيف استطاع بعد ذلك أن يدخل التحسينات على حياته حتى توصل فى النهاية الى استخدام اللغة • وهذه

المرحلة الحاسمة الى جانب مبادىء التنظيم الاجتماعى ، وبعض الافكار الخلقية هى التى ميزت الانسان عن الحيوانات التى كانت تعيش مثله فى جماعات ٠

« أما الجزء الثانى فنعتمد فيه على الوقائع التى يمدنا بها التاريخ ٠ ولكن يجب أن نختار هذه الوقائع بحيث تحقق النظرة الشاملة الى الشعوب المختلفة ، ثم نقرب بعضها من بعض ونقارن بينها ونحاول الربط بين أجزائها المتناثرة لنستخلص فى النهاية صورة صحيحة لتقدم النوع البشرى فى مجموعة ٠

« أما الجزء الثالث فهو ما يتعلق برسم صورة لآمالنا فى المستقبل ، ولأنواع التقدم التى ستحققها الأجيال القادمة ٠ وهذه الصورة لاتعتمد على التخمين بل على تتبع الأحداث حتى نهايتها ، والاعتماد على القوانين الثابتة التى تم الوصول اليها بالفعل ٠ وحينئذ يتضح لنا أن ما قد نعده اليوم خياليا سوف يصبح ممكنا بل ومن السهل تحقيقه ٠ كما سيظهر لنا انه بالرغم من النجاح العابر للأساطير والأفكار المتسلطة التى تشجع الحكومات الفاسدة على بقائها ، لابد وأن تحصل « الحقيقة » وحدها على النصر النهائى ٠ وستبدو واضحة كذلك الروابط الوثيقة بين تقدم المعارف والاستنارة العقلية من ناحية ، وبين تقدم

الحرية والفضيلة واحترام الحقوق الطبيعية للانسان من ناحية أخرى · » وسنلاحظ أنه فى جميع الأزمنة والأمكنة هناك أفكار متسلطة وخرافات تختلف تبعا لدرجة ثقافة الطبقات المختلفة من الناس ، وتبعا لحرفتهم · فاذا كانت الآراء التعسفية التى يتشبث بها الفلاسفة تسىء الى كل تقدم جديد للحقيقة ، فان الآراء المتسلطة على عقول الطبقات الأقل ثقافة تؤخر انتشار الحقائق التى أصبحت معروفة ، على حين أن الأفكار المسيطرة على عقـول بعض الفئـــات المهنية من ذوى النفوذ والسلطان تشكل عقبات كأداء أمام الحقيقة · هذه هى الأعداء الثلاثة التى يتعين على العقل أن يحاربها بلا هوادة · وهو لا يتغلب عليهـــا ، فى معظــم الأحيان ، الا بعد كفاح طويل وشاق · ولذلك فان تاريخ هذا الكفاح ، وتتبع مولد الخرافة وانتصارها ثم سقوطها النهائى سوف يحتل مكانا كبيرا من هذا البحث ، ولن يكون أقل أجزائه أهمية ولا أقلها نفعا ·

« والآن هل نستطيع أن نقول اننا وصلنا الى المرحلة التى لا مجال للخوف فيها من وقوع أخطاء جديدة فى حق الانسانية ، أو الرجوع الى الأخطاء القديمة ؟ وهل أصبحنا فى مأمن من أن يعود للظهور نظام فاســـد يقدمه لنـــا « النفاق » ، ويرحب به « الجهل » ، ويباركه « الحماس » الأهوج ؟ وهل نضمن الا تحدث التدبيرات الخبيثة صدعا فى صرح الانسانية ، وتسبب لها الشرور ؟ اننا بكل أسف

مازلنا بعيدين عن هذه الغاية • ولذلك فلا ضرر من التعرض خلال هذا البحث للوسائل التى كانت تستخدم لخداع الشعوب ، أو افسادها ، أو دفعها الى هاوية الذل والفقر •

« وتدل كل الدلائل على أننا قادمون على عصر سوف يشهد أعظم الثورات التى يحققها النوع البشرى • فما الذى يهيىء أذهاننا الى ما يجب أن ننتظره منها ؟ وما الذى يكون بمثابة الدليل الصادق الذى يقودنا وسط هذه الحركات العارمة ؟ هل هناك ما هو أفضل ، فى هذا المجال ، من عرض تاريخ الثورات السابقة ، التى كانت تمهيدا واعداد للثورة الحاسمة الكبرى ؟ أن عصر التنوير الذى نعيش فيه يضمن لنا أن هذه الثورة ستكون منطوية على السعادة ، ولكن بشرط أن نعرف كيف نستخدمها ونسخر لها كل قوانا •

« فلكى لا ندفع ثمنا باهظا فى الحصول على السعادة التى يعـــدها لنا مستقبل البشرية ، ولكى تنتشر هذه السعادة بأسرع ما يمكن ، وتعم أكبـــر عدد من الأفراد والجماعات ، ولكى تكون ســـعادة كاملة فيما نحققه من ثمرات ، ألا نجد أننـــا فى حاجة لدراسة تاريخ العقل البشرى لنتعرف على العقبات التى مازالت تهددنا ، وعلى الوسائل التى يمكن استخدامها للتغلب عليها ؟ » •

ونستطيع أن نلاحظ فى دراسة كوندورسيه مراحل متميزة تعبر كل مرحلة منها عن سمات أساسية فى تقدم العقل البشرى . فيتكلم أولا عن « تجمع أفراد البشر فى جماعات وأقوام » وتكوين الأسرة واختراع الأسلحة للدفاع عن النفس ونشأة اللغة ، على نحو ما بينا فيما سبق . ثم ينتقل فى المرحلة الثانية الى الكلام عن « حضارة شعوب الرعاة» وظهور فكرة الايمان بالقوى الروحانية ، والاستعانة برصد النجوم الذى أدى الى ظهور علم الفلك . وفى المرحلة الثالثة يتكلم عن « العصر اليونانى حتى عهد الاسكندر وفى المرحلة الرابعة يتكلم عن « تقدم العلوم منذ تقسيمها فى عهد ارسطو حتى تدهورها فى العصر الوسيط . وفى المرحلة الخامسة يتكلم عما حققه العقل البشرى من تقدم « منذ ديكارت حتى تكوين الجمهورية فى فرنسا » ثم يكرس الجزء السادس والأخير من دراسته لما يتنبأ به من « أنواع التقدم فى المستقبل » .

وتسيطر على هذه الدراسة فى مراحلها المختلفة فكرة « الحتمية التاريخية والاجتماعية » . غير أن كوندرسيه ينفى أن تكون هذه « الحتمية » عقبة فى التطلع الى مثال أعلى ، بل يرى أنها وحدها تسمح بتصـــور هذا المثـــال وبامكان تحقيقه بطريقة تكون أكثر قربا من اليقين كلما كانت معرفتنا بالماضى والحاضر أكثر وثوقا . واذا لم نصل

الى درجة اليقين المطلق فاننا نحقق على الأقل احتمـالات تزداد درجتها بازدياد عدد الملاحظات السابقة ودرجة دقتها. « فالملاحظة المحايدة ، والحكم الصائب يكفيان فيلسوف التاريخ كما يكفيان عالم الفيزيقا » .

ويضيف كوندرسيه الى الحتمية الاجتماعيـة فكرة توجيه العالم عن طريق « الذكاء الانسانى » . وهو يقول :

« ان تقدم الأخلاق والنظم يعتمد على تقدم المعارف » . وهذه الفكرة التى كانت غامضة عند تورجو تظهـر عند كوندرسيه فى تحديد ووضوح لا يقلان عما جاء بعد ذلك عند « أوجست كونت » حين أعلن « قانون الحالات الثلاث » ، وهو ذلك القانون الذى يفسر أشـكال التطور الاجتماعى بموقف العقل البشرى ازاء تفسـير مشكلات الطبيعة . « فمستوى معيشة الانسان ، كما يرى كوندرسيه ، يتحدد بقدر تفكيره ، ويستطيع عقله أن يعرف المصـائر التى تنتظره ، لأن العقل هو فى الحقيقة الذى يحـدد هذه المصـائر .

وفى تحليل كوندرسيه لما اكتسبه العقل البشرى من تقدم فى « مرحلة حضارة الرعاة » يقول :

« عندما أدرك الرعاة بالفطنة مدى الفائدة التى تعود عليهم من ملاحظة النجوم ، وأصبح ذلك أحد شواغلهم فى سهراتهم الطويلة ، بعد أن أتاحت حياة الرعى لهم ساعات

طويلة من أوقات الفراغ ، أمكن تحقيق تقدم طفيف فى علم الفلك .

« وتأسست فى هذه المرحلة قواعد عبادات منتظمة ، وتهذبت الأفكار الداعية الى الايمان بقوى خارقة للطبيعة ، والى جانب ذلك ظهرت فئة من الرؤساء الروحانيين هنا ، أو بعض العائلات المقدسة هناك ، وتكونت منهم طبقة تدعى لنفسها امتيازات ، وتفصل نفسها عن الناس حتى تتمكن من التحكم فيهم . واحتكرت هذه الطبقة لنفسها ممارسة الطب والعلاج ، وعلم الفلك وذلك لكى تجمع فى يديها جميع الوسائل التى تمكنهـا من السيطرة على العقول ، وحتى لا تترك لها أى فرصة لكشف النقاب عن خداعها ، وكسر الأغلال التى تقيدها بها .

« وقد ظل عدد من الشـعوب فى هذه الحالة مدة قرون طويلة ، ولم تسـتطع أن ترتفع بنفسها الى درجات اعلى من التقدم ، بل ان اتصالها بالشعوب الأخرى التى وصلت الى درجة عالية من الحضـارة لم يثر فيها حوافز الثورة ، بل اقتصر أثر هذا الاتصال على اكتسـاب بعض المعارف ، وبعض مستلزمات الصنعة الى جانب عدد كبير من الرذائل ، دون أن ينتزعها من حالة الجمود العقلى .

« وقد يكون من أسباب ذلك تعلق الانسان الطبيعى بالأفكار التى يتلقاها منذ حداثته ، وتمسكه بما درج عليه من عادات بيئته ، وكراهيته الطبيعية لكل نوع من أنواع

التجديد ، هذا الى جانب الكسل الجسمى والعقلى الذى كثيرا ما يتغلب على حب الاستطلاع ، وهو بعد ما زال ضعيفا ٠ واذا قيل ان بعض الشعوب قد استطاعت أن تتغلب على أثر هذه العوامل ، فما ذلك الا لأنها تخلصت أولا من أثر الخرافة المسيطرة على العقول ، والتى كان يغذى شعلتها باستمرار رجال الكهنوت ٠

« وقد امتدح بعض الفلاسفة حالة الركود هذه وسموها حالة الطبيعة ، وجعلوا منها مصـــدر الحكمة والفضيلة ، وانتقدهـــا فلاسفة آخرون أطلقوا عليهـــا حالة الغبـــاء والكسل » ٠

« وسوف يكون فى هذا البحث محاولة لحل المشكلة المثارة بين الفريقين ٠ فسنرى لماذا لا يلحق بتقدم العقل دائما تقدم للمجتمعات نحو السعادة ، وكيف أن اختلاط الحقائق بالأكاذيب والأفكار المتسلطة قد أفسد الرابطة التى كان يجب أن توجد بين التقدم واستنارة العقل بأنـواع المعارف ، وكيف أن هذا التقدم لا يعتمد على سعة الاستنارة بقدر ما يعتمد على صفائها ونقائها من الشوائب ٠ وسنرى فى النهاية أن الرذائل التى تعانى منها الشعوب المتحضرة لا يسببها اتساع العلوم والمعارف ، بل تظهر ، على العكس ، عند تدهور هذه العلوم وانحطاطها ٠ فالمعرفة الحقة أبعد من أن تفسد الانسان ،ولكنها على الأقل تهذبه اذا لم تستطع أن تغيره تماما » ٠

العصر اليوناني : وعندما يتحدث كوندرسيه عن العصر اليوناني يهتم بأثر الفلسفة فى تقدم العقل البشرى وبخاصة فلسفة سقراط ، فيقول :

« ان من القواعد الأولية فى كل فلسفة جيدة هو أن تهتم بتكوين لغة خاصة ودقيقة لكل علم ، بحيث تعبر كل كلمة عن فكرة محددة ، ويؤدى ذلك الى الاحاطة بدقائق الأفكار عن طريق التحليل الصارم • « ولكن اليونان ، على العكس ، قد استغلوا بعض عيوب اللغة العامة فى التلاعب بمعانى الكلمات ، وذلك لكى يحيروا العقول فى أنواع من اللبس ، ويضيعونها فى متاهات بالتعبير بكلمة واحدة عن عدد من الأفكار المختلفة • ومع أن هذه الطريقة قد هيأت نوعا من المرونة للعقول الا أنها استنفدت جهدها فى حل معضلات وهمية • وحين اضطرت « فلسفة الكلمات » هذه ، العقل البشرى لأن يقف طويلا أمام كل عقبة لا يقوى على اجتيازها ، فانها بذلك لم تساعد على تقدمه بطريق مباشر ، وانما مهدت فقط لهذا التقدم •

« وعرفت هذه الفلسفة باسم فلسفة السوفسطائيين • وهي حين تعلقت بمسائل قد يستحيل الوصول الى حلها ، وحين استمالتها عظمة الأشياء دون أن تفكر فيما اذا كان هناك وسيلة لبلوغها ، وحين أرادت أن تؤسس « النظريات » قبل أن تجمع « الوقائع » ، وأن تقدم فلسفة كونية قبل أن تعرف كيف تلاحظ ظواهر هذا الكون ـ حين أرادت

كل ذلك ، فانها لم تفعل سوى أن اقترفت أخطاء جسيمة ، أدته الى وقف سير الفلسفة وهى ما تزال بعد فى خطواتها الأولى .

« ولذلك فان سقراط ، حين حارب السوفسطائيين ، وقذف ألاعيبهم الكلامية بوابل من السخرية ، فقد كان يدعو مواطنيه ، فى الوقت نفسه ، لأن يعودوا بالفلسفة الى الأرض بعد أن كادت تتوه فى السماء . ولم يكن معنى ذلك أنه كان يحتقر الفلك أو الهندسة أو ملاحظة ظواهر الطبيعة ، كما أنه لم يكن يفكر قط فى أن يقتصر العقل البشرى على دراسة الأخلاق وحدها . بل تؤكد ، على العكس ، أن الفضل يرجع الى مدرسته بالذات والى تلاميذه فيما يتصل بتقدم العلوم الرياضية والفيزيقية .

« ولكن سقراط أراد فقط أن ينبه الناس الى أن يقصروا جهودهم على الأشياء التى وضعتها الطبيعة فى متناول عقولهم ، والى أن يثبتوا موضع أقدامهم قبل أن يخطوا خطوة جديدة ، والى أن يدرسوا العالم المحيط بهم قبل أن يندفعوا ، على غير هدى ، الى الفضاء المجهول .

« وكان موت سقراط حدثا هاما فى تاريخ العقل البشرى . اذ أنه أول جريمة ولدت شرارة الحرب بين الفلسفة وبين الخرافة . وقد أعطى حريق المدرسة الفيثاغورية قبلها الانذار لكى تأخذ الفلسفة حذرها من المظالم التى يقترفها مضطهدو الانسانية . وسوف تظل

الخرافة على الأرض ويظل الاضطهاد طالما ظل هناك رجال كهنوت أو ملوك ·

« اذ أن رجال الكهنوت أحسوا ، في مرارة ، بأن بعض الناس (وهم الفلاسفة) يبحثون لتحسين عقولهم بالرجوع الى العلل الأولى للأشياء ، ويدركون أثناء هذا البحث سخف أسرار الكهنوت وتفاهة طقوسهم · وخافت فئة الكهنوت أن يلقن الفلاسفة ما توصلوا اليه من علوم الطبيعة وقوانينها الى تلاميذهم ، وأن تنتقل هذه العلوم والمعارف بعد ذلك الى كل من يبحث لتثقيف عقله حتى يعطى لشخصيته وزنا وقيمة · فاتهم رجال الدين الفلاسفة بالالحاد والتجديف فى حق الآلهة حتى يفوتوا عليهم فرصة افهام الشعوب حقيقة موقف رجال الدين من تعويقهم عن الوصـــول الى الحقيقة · ومال بعض الفلاسفة الى تجنب الاضطهاد باتخاذ موقف وسط ، فلم يلقنوا مبادئهم الا الى أخلص الخلصاء من تلاميذهم ، وحجبوا عن الشعب الأفكار التى وجدوا فيها مساسا بمعتقداته الراسخة ·

العصور الحديثة :

« تقدم العقل البشرى ببطء شـديد خـلال العصر الوسيط بفعل التقدم الطبيعى للحضارة ، وذلك لاستيلاء الخرافة والأساطير عليه من ناحية ، ولسيادة حكم الطغيان الذى شل العقول بسبب الخوف والبؤس من ناحية أخرى·

« ولكن عصر النهضة مهد لانتشار العلوم الانسانية ، ذلك الانتشار الذى ما لبث أن بعث العقول من رقادها ، وأحدث تقدما سريعا فى الفكر بما يشبه الثورة • وانتقل هذا التقدم من بلد الى آخر بشكل يضمن لنا أنه لابد أن يعم ، فى وقت قريب ، الجنس البشرى فى مجموعه •

« وهكذا نرى أنه بعد أن هامت البشرية على وجهها فى متاهات الجهل أحقابا طويلة ، وبعد أن تحيرت العقول فى نظريات ناقصة أو غامضة ، توصل المفكرون فى النهاية الى معرفة الحقوق الطبيعية للانسان ، واستخلاصها من هذه الحقيقة الأساسية ، وهى أن **الانســـان كائن له شـعور ويستطيع أن يكون احكاما ويكتسب أفكارا خلقية** •

« ووجدوا أن الابقاء على هذه الحقوق يجب أن يكون الهدف الوحيد من اجتماع الناس وتكوينهم للمجتمعــات الســـياسية ، وأن التنظيم الاجتماعى يجب أن يكون فى ضمان الاحتفاظ بهذه الحقوق مع العدالة التامة فى أوسع نطاق ممكن •

« وهكذا قضى على المبدأ القديم الذى كان يقسم الناس الى فئتين منفصلتين لا تداخل بينهما : فئة قدر لهـا أن تحكم ، وفئة كتب عليها أن تخضع • الأولى تتسلح بالكذب ، والثانية تدافع عن نفسها ضد الخداع والتضليل • وانتهى

الأمر الى الاعتراف بأن للجميع حقا متســـاويا فى تنوير عقولهم بما يحقق مصالحهم ، ومعرفة جميع الحقائق ، وبانه لا حق لأى ســـلطة من السلطات التى اختاروهـا لتتولى امورهم فى أن تحجب عنهم أى حقيقة ٠

« هذه المبادىء الذى اشتهر « لوك » بالدفاع عنها ، وقد وجدت بعد ذلك فى « روسو » خير من ينميها وينشرها فى قوة ، وهو يستحق المجد لأنه وضعها فى عداد الحقائق التى لا يسمح لأحد لا بنسيانها ولا بمحاربتها ٠ وعلى هذا النحو أصبح الانسان يستطيع أن ينمى قواه ، وأن يحصل على ثمرة جهوده ، وأن يكفى جميع حاجاته بحرية مطلقة ٠ وغدا الصالح العام لكل مجتمع ، لا فى الحد من ممارسة هذه الحقوق ، بل فى الحيلولة ، على العكس دون مساسها ٠

« على أن ضروب التقدم هذه فى مجالات السياســة والاقتصاد كانت ترتكز الى قاعدة أســاسية من الفلســفة العامة أو الميتافيزيقا باوسع معانى هذه الكلمة ٠

« ويعود الفضـــــل الى « ديكارت » فى أنه أرجـع الميتافيزيقا الى نطاق العقل ، وذلك حين شعر بان مسائلها يجب أن تصـــدر كلهـا عن حقائق « واضحة » « وأولية » تطلعنا عليها ملاحظة العمليات التى تدور فى عقلنا ٠

« ثم أخذ « لوك » الخيط الذى وجه به الفلسفة فى نفس الطريق • فبين أن التحليل الدقيق للأفكار ، بارجاعها واحدة بعد أخرى الى أفكار أكثر مباشرة من حيث أصولها ، أو أكثر بساطة من حيث تركيبها ، هو الوسيلة الوحيدة التى تحول بيننا وبين الضـــياع فى خضم من المعلومات الناقصـــة ، أو غير المتسقة أو غير المحـــددة ، وهى تلك المعلومات التى ألقت بها الصدف أمامنا بغير نظام وتلقيناها بغير تفكير • وقد أثبت بفضل هذا التحليل نفسه ، أن جميع الأفكار هى نتاج لعمليات يمارسها ذكاؤنا على أنواع المحسوسات التى تلقيناها • أو بمعنى أدق هى تركيبات لهذه المحسوسات تعيدها علينا الذاكرة فى آن واحـــد ، ولكن بطريقة تمكن الانتباه أو الادراك الحسى أن يقف أو يقتصر على جزء فقط من هذه المحسوسات المركبة •

« كما استطاع لوك أن يؤكد لنا ، أننا حين نلصق كلمة واحدة بكل فكرة بعد أن نحللها ونحددها ، فاننـــا نصل الى تذكر هذه الفكرة دائما هى نفسها ، أى مكونة من عناصرهـــا البسيطة ، ومحصورة فى نفس الحدود • وحينئذ نستطيع استخدامها في عدد من الأحكام دون أن نخشى الوقوع فى الخطأ • وعلى العكس ، اذا لم تكن الكلمات تعبر عن معنى محدد ، فانها تثير أفكارا مختلفة فى العقل الواحد ، وهذا هو المصدر الخصب لأخطائنا • وأخيرا فان لوك كان صـــاحب الفضـــل فى أنه وضح حدود الذكاء

الانسانى ، أو بمعنى آخر حدد طبيعة الحقائق الذى يستطيع أن يعرفها العقل ، والموضوعات التى يستطيع أن يشتمل عليها .

« وأصبح هذا المنهج هو منهج الفلاسفة جميعا . وحين طبقوه على الأخلاق ، والسياسة ، والاقتصاد ، استطاعوا أن يحققوا تقدم هذه العلوم بنفس الخطوات الثابتة التى حققتها العلوم الطبيعية والتى تتلخص فى ألا نقبل الا الحقائق التى قام عليها البرهان ، وأن تفصل هذه الحقائق عما عداها مما لا زالت موضع الشك أو عدم اليقين ، وأن نوطن أنفسنا على أن نجهل ما لا يمكن معرفته ، وما سيستحيل علينا دائما معرفته .

« وحينما حققت العلوم الانسانية هذه الخطوة استطاعت أن تحارب بكل قوة وعزم جرائم التعصب والطغيان ، وتعقبت فى نطاق الدين ، والادارة ، والأخلاق ، والقوانين كل ما يحمل طابع الظلم ، والقسوة ، والوحشية ، وأطلقت صيحتها فى سبيل اعلاء هذه المبادىء الثلاثة : العقل ، والتسامح ، والانسانية » .

مستقبل البشرية :

يعبر كوندرسيه عن مستقبل البشرية بمثال أعلى ذى ثلاث شعب : عالمية ، واجتماعية ، وأخلاقية . فيقول :

« ان آمالنا عن الحالة المستقبلة للنوع البشرى يمكن تلخيصها في هذه النقط الثلاثة الرئيسية : القضاء على عدم المساواة بين الدول ، وتقدم فكرة المساواة بين أفراد شعب واحد ، وأخيرا التحسن الخلقى للانسان ·

« ومن حسن الطالع أن عدم المساواة بين الدول قد أخذ يختفى فعلا ، وأن الاتصال بين الدول عن طريق التجارة وغيرها قد أتاح لمبادىء الاستقلال والحرية أن تتغلغل الى أبعد المناطق فى آسيا وأفريقيا · وستغمر العالم كله ، فى وقت قريب ، أنوار العلم والمعرفة وبذلك يختفى كل أثر للاستغلال · وحينئذ تحين اللحظة التى لرقبها حين لا تضىء الشمس على الأرض الا لأناس أحرار ، لا يعترفون بسلطان غير سلطان العقل » ·

« أما من حيث عدم المساواة بين الأفراد داخل نطاق دولة واحدة ، فهو ذو ثلاثة أوجه : عدم مساواة فى الثروة ، وعدم مساواة فى الحالة الاجتماعية ، وعدم مســـــاواة فى التعليم » ·

ولا يعتقد كوندرسيه ، أو يرى ممكنا أو مرغوبا فيه أن تختفى كل هذه الظواهر تماما ، ويقول فى ذلك :

« اننا اذا حاولنا أن نقضي على هذه الظواهر قضاء مبرما ، فسنفتح الباب لمصادر أخرى لعدم المساواة أشد خطرا ، وسنوجه الى حقوق الناس ضربات أكثر مباشرة وأبلغ ضررا » •

ولكن مع ذلك يعتقد أن عدم المساواة ، فى هذه المجالات الثلاثة ، فى طريقه الى التناقص المستمر ، وأن السير فى هذا الاتجاه لابد أن يزداد سرعة على مر الزمن • فالثروات تتجه طبيعيا نحو التقارب ، ولا شك أن التشريعات الحكيمة فى مجال الصناعة والتجارة ، ووضع نظام ضرائبى عادل ، واصلاح قوانين الأحوال الشخصية ، ومحاربة العادات الضارة ، كل ذلك سيقوى الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية •

« أما من حيث عدم المساواة فى التعليم ، فالقضاء عليه من أسهل الأمور • فعن طريق الاختيار الصالح لأنواع المعرفة ، وللمناهج الملائمة لتعليمها ، يمكن تثقيف جمهور الشعب فى مجموعه بما يحتاج كل انسان لمعرفته لكى يحسن ادارة بيته وعمله ، وتنمية قدراته ومواهبه ، ولمعرفة حقوقه وواجباته ، وأخيرا لكى لا يشعر بأنه غريب على المشاعر السامية التى تشرق الطبيعية الانسانية • وخلاصة القول أن التعليم يجب أن يكون لخلق انسان حر ، سيد لنفسه ، بحيث يستطيع أن يتجنب أخطار الأفكار المتسلطة والانفعالات الجامحة » •

وهكذا يعتقد كوندرسيه اعتقادا راسخا أن انســان المستقبل سيكون أقوى ، وأسعد ، وأكثر ذكاء من انسان اليوم • وأن الفيلســوف الذى يتألم اليوم من الأخطاء والجرائم وأنواع المظالم التى مازالت تلطخ سطح الأرض سوف يجد العزاء فى مشهد لوحة البشرية المستقبلة التى ستكون متحررة من كل هذه القيــود التى ترسف فيهــا اليوم ، متغلبة على كل العوامل التى تعوق التقدم ، وسائرة بخطى ثابتة فى طريــق « الحقيقة » و « الفضــيلة » ، و « السعادة » •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٩١

ISBN — 977 — 01 — 4398 — 7

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى

خمسة وعشرون قرش

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

